

علوم البلاغة في الجامعة

للأستاذ علي العاربي

→→→→→

يحلو لبعض المعاصرين أن يسموا أنفسهم مجددين ، كل فيما يزاول من علم أو فن ، ولعل هذا الادعاء عارض نفسي يمرض لكثيرين في كل عصر ولا سيما من يغمرون بالشهرة ، ويحبون أن يحمداوا بعالم يفتلوا .

وتجديد هؤلاء عجب من العجب ، فإهو إلا أن تمين فكرة في رأس أحدهم حتى يطير بها ، ويكاد يحن فرحاً وغروراً ، ولو عرف قدر نفسه وتأنى قليلاً لأدرك أنما خيل له ، وليس هو التجديد ، ولكنه قصور الفهم ، وضلال العقل ، وعمل الغرور ، وربما اكتفى أحدهم بدرس كتاب أو كتابين في المادة التي يريد أن يحدد فيها . ثم بعد ذلك يشهد العالم على أن العلماء قصروا ، وأنهم لم يفهموا ، ولو أمعن الفهم ، ولو وسع دائرة اطلاعه لقد كان وجد في كتب القوم ما يرد ترغته ، ويطغى شهوته .

وقد منيت علوم البلاغة في هذا العصر بدعاة التجديد ، وهي في شديد الحاجة إلى من يجد أخلاقها ، ولكنها لا تظفر إلا بالدعوى الرديئة الكاذبة ، ونستطيع أن نقول إن التجديد فيها وقف بعد الأمام الجليل الشيخ عبد القاهر الجرجاني ، وإن ما بذل بعد ذلك ليس إلا محاولات بسيطة إن لمست بعض النواحي في هذا الفن فأنها لم تخلص إلى اللباب ، وإن في (دفاع عن البلاغة) للأستاذ الزيات ، وفي (مذكرات في علوم البلاغة) لفضيلة الشيخ سليمان نوار ، وفي (التصوير الفني في القرآن) للأستاذ سيد قطب أقول إن في هذه الكتب لو ثبات تبشر بخير ، وهي بعد جدرة بالتقدير .

ويمكن أن ننظر في محصول هذا العصر البلاغي ، فنجد بعض العلماء قنع بأن يجمع الأشبات ، ويؤلف التفرقات ، ثم يدعى أنه في البلاغة ألف ، وبمضهم يمد إلى الورق الصقيل ، والطبع الأنيق ، ليقول إنه في البلاغة جدد ، ولعل شر الثلاثة هؤلاء الذين

يفترون على العلم ويكذبون على القدامى ، ويكثرون من ثلهم وتنقصهم ليقال إنهم وحدهم الذين عرفوا وقد جهل الناس ، ووصلوا وقد نماذيل العلماء .

يهدمون ولا يبنون ، ولو أنهم هدموا متبصرين فاهمين لكان فيهم أمل ، ولكنهم بضربون معاولهم وهم مغمضو الجفون . بين يدي الآن مذكرات في علم المعاني أملاها الأستاذ الشيخ (أمين الخولي) على طلبته في الجامعة المصرية ، وفيها كثير مما يستحق أن يناقش ، ولكنني رأيت أن يشركني القارى في هذا الأسلوب الذي يدرس به هؤلاء الأعلام !! .

وإنما يعني هذا الأمر لأن البلاغة فن من الفنون قبل أن تكون علماً من العلوم ، وما دامت فنا فهي تتطلب ما تتطلبه الفنون من حسن العرض وجمال التنسيق وخلق الذوق الأدبي في المتعلمين ، ولهذا كانت حاجتها إلى الأكتار من النماذج المرئية الصحيحة الفصيحة . ومن العرض المتأنق الجميل الحاجة القصوى ، ولكن ما ذا نقول حين نرى أستاذ البلاغة في الجامعة المصرية يمرض هذا الفن ، كما يمرض واعظ العامة موعظته في أسلوب عاى ركيك ، ولنتقصر الآن على عرضه لثلاث آيات من كتاب الله الكريم :

١ - (وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم) يشرحها الأستاذ هكذا « وبعبارة أخرى يريد الله أن يقول : هو محمد ده يطلع إيه ؟ محمد هذا والرسل من قبله مجرد (سماء بوسته) هو رسال زى المراسيل اللي قبله ... يجي ويروح ويموت وينقتل ... الخ فإذا حصل شيء من هذا يبقى خلاص انقطع ما بينكم وبين الله ؟ هو بمنفهم لا على نكوصهم عن محمد ، بل لنكوصهم من أجل موت محمد . ولذا يقول : أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ... الخ ... انتهى بنصه وفصه !!

صدقني - أيها القارى - أن هذه عباراته . فهل هذا هو التجديد ؟ هذا كلام يمكن أن تصور صدوره من واعظ يلقى عظته على جماعة من (البرابرة) فيضطر إلى أن ينحدر هذا

وقوعه بعد أن انتقل عيسى من هذا العالم الذي نحن فيه بدليل « فلما توفيتي » وكان الله يقول لهم « أنتم بتقولوا عيسى ده إله ، وإنه هو الذي أمركم أنكم تصدوه ... نجيبه ؟ نسجبه ونسأله ؟ ثم صور بمد ذلك أنه لو قام وبث إلى الحياة لدار بينه وبين الله هذا الحوار : الناس الباردون دول ... هل أنت قلت لهم يا عيسى إنك إله ؟ قول لهم ؟ قل لهم يا أخي !

بمثل هذه الأساليب البارة الفاتنة يلقي مدرس البلاغة في جامعة فؤاد الأول ، وسيد المجددين كما يدعى ... يلقي دروسه ! ومن الانصاف أن نذكر أن الأستاذ الفاضل أدرك أخيراً ما في هذه الأساليب من ضعف وسخافة ، فأشار على تلاميذه أن يمحوا بالقلم على بعضها ، ولكنه بعد قلم خفيف إن مر على دقارم ، فلن يمر على أفكارهم وأذهانهم ...

على العمارة

مدرس البلاغة بمعهد القاهرة

الأنحدار ، على أنى وائق من أن مثل هذا الواعظ يعف لسانه وذوقه عن هذا الهديان !

ولكن ما الحيلة والرجل من كبار المجددين في علوم البلاغة ، ليس التجديد هو مخالفة الأقدمين ؟ ليس التجديد هو البساطة والحذقة ، وما اللانع من أن يلقي على طلبة الجامعة أن محمدا وعيسى وموسى وإبراهيم وجميع الرسل ليس إلا « سماء بوسته » ؟ وهل في السنة البلاغيين أصدق وأبسط وأحسن من هذا التعبير الجميل الظريف الخفيف ؟ !

٢ - قال الله تعالى « وما أنت بمسمع من في القبور إن أنت إلا نذير » . وقال الشيخ نعمنا الله به وبعلمه آمين : « أنت مش حتسمع اللي في القبور . والحقيقة أنه هو مش قدام أموات ، وإنما قدام ناس ألواح وبهايم ، والقرآن بيقول له : إنك حريص قوى على هدايتهم ، والأحسن إنك ما تحرمش كثير على هذه الهداية . قال له ذلك لأنه شاف إنه كاد لفرط عنايته بأن يهتدى هؤلاء القوم أن يخرج عن حده فينسى أن مهمته هي مجرد التبليغ . هو عمال يحرث في دمه مع الناس دول ، ووقاؤه لمهمته هو الذي يحمله على الإسراف في الإلحاح ويهز في هذه الألواح ، ويحاول أن يبعث فيهم نفحة من الهداية بأى نعم . فقال له الله : يا أخي أنت حارق نفسك ليه ... أنت ماتتس حاجة أبداً إلا نذير تنذر من ينذر ، وتخوف من يخاف ، وتعلم من يتعلم ، وتنبه من يتنبه ، ودول أموات ... فالأحسن لك إنك تريح نفسك » .

والله ما أدري ماذا أقول ؟ وإني لخائف أن أقابل هذا الكلام بما هو به جدير فيستثقل القراء ويستبردون كلانى . ولو أن في الجامعة قوما يجاسبون المدرس لاتهموا هذا الأستاذ بتهم أقلها إفساد ذوق التلاميذ .

على أن شرحه بعد ركاكته ونهافته - ليس موافقاً كل الموافقة لما تنطق به الآية ، وإدراك ذلك سهل ميسور .

٣ - وقال عز وجل « وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأبى الهين من دون الله » . ويقول الشيخ : « الحوار في هذه الآيات بين عيسى وبين الله حوار خيالي محض صور

بأدر باقتناء نسختك

قبل نفاذها

من كتاب :

دفاع عن البلاغة

للأستاذ

احمد حسن الزيات

يطلب من دار « الرسالة »

ومن المكاتب الشهيرة وثمنه ١٥ قرشاً هذا البريد